

إن انحطاط المجتمع يبدأ حين يسأل الإنسان
نفسه، ماذا سيحصل بدلاً
من أن يتساءل، ماذا يمكنني أن أفعل.

الطريق إلى الشفاء

إن النتائج السيئة التي ترتبت على الاحتلال السوري قد تخطت الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لتطاول نفسية المواطن والمجتمع في آن معاً، وقد أصبح اللبناني بحاجة إلى وقفةٍ مع ذاته لعله يستقيق ويخرج من الأخدود الذي رُسم له، والذي يقوده إلى الهلاك إذا استمرّ في سلوكه.

فالحالة التي يعيشها اللبنانيون تجاوزت مرحلة ظهور العوارض المرضية، لتصبح وباءً يجتاح جميع شرائح المجتمع، ولعلّ المرض الأكثر فتكاً هو الاستسلام المطلق الذي يتخذ شكلاً هرمياً، يبدأ برأس الحكم وينتهي عند قاعدة المواطنين، فالحكم المزعوم يستسلم للمحتلّ من دون قيدٍ أو شرط، يُسلم القرار ويُسيب الأرض، والمواطن يستسلم في الوقت ذاته للأحداث والقدر، معتقداً بأن الخلاص أعجوبة تهبط من السماء.

سواءً كان مخاطبك أحد المارة في الشارع، أو جليساً في صالون، أو مكالماً على الهاتف، فأول ما يبادرك به، وبصورة شبه دائمة، هو السؤال عمّا سيحدث، ويترقب أن تعطيه خيراً ساراً، ولا بأس إن كذبت عليه، لأنّه يحاول الهروب من الحقيقة المؤلمة التي يعيش، وتخدير نفسه بالأوهام بدلاً من مواجهة الوضع السيئ وتحمل مسؤولياته في السعي لتغييره؛ إن واجب المصارحة يقضي بأن نقول للجميع بأن ما حصل لهم من سوءٍ هو مسؤولية الاحتلال وعمالته، ولكن الاستمرار فيه واستفحاله هو من مسؤوليتهم.

إنّ الظلم من شيم الطغاة وليس من المعقول أن يأتوا بالأعمال الحسنة، وبذلك يصبح كلّ انتظارٍ خيانة لقضية الوطن، لأنّه يعطي الفرصة الزمنية اللازمة للمستعمر وعمالته لتمكين قبضتهم على المواطنين، واستهلاك جميع قواهم الحية في صراعات جانبية عقيمة. ولقد نجحوا لغاية الآن في تقسيم الشعب بتغذية التطيّف والمذهبية، ومن ثمّ بعثرة الجماعات بتهديم الثقة بين الناس، وقتلها في نفوس الأفراد. كما عملوا على تضخيم الخوف في الصفوف كي لا تنتظم في المطالبة بتحرير الوطن، أرضاً وقراراً، بصورة حاسمة.

إنّ فتات العهود السابقة رُمّت ورُقعت في الطائف، وتشكّل اليوم نظاماً مصلحياً هزلياً، يُستعمل مطية لتصفية الوطن وتشريد شعبه، وهو العائق الأول لكلّ تغييرٍ إيجابي في الوضع القائم، أمّا المعالجة فليست في إضاعة الوقت بالانتظار وإعطاء الفرص للجناة، كما أنها ليست أيضاً بترقب الأحداث ومعرفة كيفية دورانها، ولكنّها، بالتأكيد، هي بالسعي للخروج بالمجتمع من حالة الخبل التي يسبح بها، وجمع قواه الخيرة لتلقي الأحداث، فتزيد في حسنات الإيجابي منها كما تخفّف من سيئات السلبي.

فلا يسألنّ أحد بعد اليوم ماذا سيحصل، بل عليه أن يسأل ماذا يجب أن يفعل. ولأنّ قدرة الفرد على الإنجاز تبقى محدودة على مستوى القضايا الوطنية، فإن العمل ضمن التجمّعات المهنية والهيئات المحلية، هو الإطار الصحيح للتلاقي والتعبير.

لا تجعلوا من أصواتكم نقيقاً خافتاً يضيع في زوايا المنازل المهجورة، بل ضمّوها إلى الصوت الذي يجعلها هادرة وفاعلة، ومن يتخلف بعد اليوم عن العمل، يكون قد استحقّ ما أصابه، ويفقد حقه حتى في النقيق.

العماد ميشال عون